



بداية تمكين يوسف عليه السلام

(012) سورة يوسف

الدرس الخامس: شرح الآيات 19- 22

2020-09-12

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.
مع اللقاء الخامس من لقاءات سورة يوسف ومع الآية التاسعة عشرة من السورة وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

(سورة يوسف: الآية 19)

هذه الآية بدأتها في اللقاء الماضي، فلنا: السَّيَّارَةُ مثل الكشَّافَةِ الذين يكتفون فيسَمُّون الكشافة أو البائعة الجواله الذين يكتفون التجوال، السَّيَّارَةُ يكتفون السير فهي قافلَةٌ تسير كثيراً فسميت سَيَّارَةً.

نجاه يوسف عليه السلام من الجب

قال تعالى: (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ) البئر كان في طريق القوافل التجارية (فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ) الوارد هو الذي يرد الماء، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ

(سورة القصص: الآية 23)

والوارد يسبق القوم سواءً كان فرداً أو مجموعةً، يسبق القوم ليستطلع الماء وصلاحيته ثم ينادي قافلته أن هلمُّوا فالماء موجودٌ أو صالحٌ للشرب أو غير ذلك، فتأتي القافلة التي معه لترد الماء معه، (فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ) الذي يرد الماء قبليهم (فَأَذَلَّتْ دَلْوَهُ) الدلو الذي يملؤه بالماء من البئر، يبدو أن يوسف عليه السلام تعلق بالدلو لكن السياق القرآني لم يذكر ما الذي حصل، هل ناداه أم تعلق بدلوه؟ تركها مفاجأة، قال: (فَأَذَلَّتْ دَلْوَهُ) قَالَ يَا بُشَيْرُ هَذَا عَلَامٌ) وترك لك أن تتخيل ما الذي حصل، هذه فجوة في القصة لها هدف وهو استتارة القارئ، (فَأَذَلَّتْ دَلْوَهُ) قَالَ يَا بُشَيْرُ هَذَا عَلَامٌ) إذا تعلق يوسف بالدلو فيما يبدو وخرج إلى هذا الوارد، (قَالَ يَا بُشَيْرُ هَذَا عَلَامٌ) يوسف كما تروي الروايات في هذا الوقت كان عمره في التاسعة أو العاشرة أو الحادية عشرة، لسنا بصدد تحديد العمر، لكنه كان في عمرٍ يستطيع أن يخبر عن نفسه والدليل ما رواه لوالده من رؤيا.

يوسف لم يكن في عمر صغير لا يستطيع أن يخبر عن نفسه، لو أنهم سألوه: من أنت؟ لأجابهم من أبوك؟ لدلَّهم، ويعقوب معروف، فهو ليس شخصاً عادياً، هو نبي الله، فكان من الممكن أن يسألوه فيدلهم، هو شيء سهل ومنطقي جداً أن يسألوه، لكن الله يدبِّر الأمور بتدبيره لذلك قال تعالى: (وَأَسْرَوْهُ يَصَاعَةً) هم أخذوه سراً لأنهم لم يتعاملوا وفق العرف المعهود، هذا غلام ينبغي أن تسال عنه أو تساله من أنت فيجيبك فتوصله إلى أهله أما أن تأخذه على أنه بضاعة فهذا غريب!



البضاعة هي ما يعدُّ للتجارة

البضاعة هي ما يعدُّ للتجارة في الأصل، تقول: جاءتني بضاعةٌ جديدةٌ إلى متجري، وسميت بضاعةً من البضْع، والبضْع هو القطع ومنها مَبْضَعُ الجِرَّاحِ الذي يُفْطَعُ به، لأن البضاعة هي قطعةٌ ثمينةٌ تقتطع للتجارة، توضع ويختص بها التاجر فتسمى بضاعة التاجر، وهم (أَسْرَوْهُ يَصَاعَةً) أي جعلوه بضاعةً سريةً، ما أرادوا أن ينكثف أمرهم، أولاً لأنهم لو سألوا عنه لُغِرْف من هو وهم يريدون أخذه، وثانياً لأنهم سيتعاملون معه على أنه رقيق فيبيعونه وهو لا يجوز بيعه لأنه حرٌّ فمن أجل هذين السببين (أَسْرَوْهُ يَصَاعَةً) أي أخفوه عن عيون الناس وجعلوه متاعاً، ثم قال تعالى: (وَأَسْرَوْهُ يَصَاعَةً) وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) الله عليمٌ بالعمل سواءً كان حسناً أو قبيحاً، لكنه هنا في موضع التهديد وبيان أن ذلك العمل الذي عملتموه ليس صحيحاً.

قلنا سابقاً: إن الأمور تجري بالمقادير وإن الله تعالى يُسبِّرُ يوسف ليصل إلى مصر وليصبح بعد حين عزيز مصر ولتكون له المكانة العلية فهذا الذي ينبغي أن يجري، لكن هذا لا يعني أن أفعالهم تلك كانت صحيحة، فالموقف الصحيح كان يقتضي من هؤلاء أن يسألوا يوسف من أنت ومن أبوك ويعيدوه إلى بيت أبيه، لكنهم فعلوا ما يشبه الاختطاف فاخطفوا هذا الغلام وجعلوه بضاعةً ليتفنعوا بثمنه.



التوحيد لا يعفى من المسؤولية

قلنا في اللقاء الماضي ونكرر لأن هذه الفكرة مهمة جداً: إن التوحيد لا يعفى من المسؤولية، ليس لإنسان أن يقول: قد جرت الأمور بالمقادير والله تعالى هو القَعَّال لَمَا يُرِيدُ وهو الذي أراد أن يسرق من فلان أو أن يُقتل فلان، حسناً إلا نعاغب الذي سرق وألا نقتص ممن قتل؟ طبعاً نعاغب من سرق ونقتص ممن قتل، فحكمة الله لا تعفيك من المسؤولية، فأنت مسؤولٌ عن عملك (إِنْ حَبْرًا فَحَبْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ) فالله تعالى بيده كلُّ شيء، ولكن طوبى لمن قُدِّرَ على يديه الخير والويل لمن قُدِّرَ على يديه الشر بسببٍ منه بعده عن الله قُدِّرَ على يديه الشر.

شراء سيدنا يوسف بثمنٍ بخس

قال تعالى:

يَسْمُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ
وَسَرَّوهُ يَتَمَنَّى بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَّعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الرَّاغِبِينَ

(سورة يوسف: الآية 20)

يَسْمُ اللّٰهُ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللّٰهِ

(سورة البقرة: الآیة 207)



التخس إى القلیل

(يشري نفسه) أى يبيعه، فنقول: شَرَى واشترى: أى تَأَع واشترى، ونقول: كَرَى واكثرى: يعنى أَجَّر واستأجر، من الكراء وهو الأجرة، فالفعل الأساسى على وزن قَعَلَ يدل على الفعل الرئيسى الذى يصدر من الإنسان، والمطاوعة تكون من الافتعال: بعته فابتاع منى، أو شَرَى فاشتريت يعنى باعنى فاشتريت منه، شَرَى بمعنى تَأَع (وَشَرَوْهُ يَتَمَن بَخْس) باعوه (يَتَمَن بَخْس) بَخْس بمعنى ميخوس أى قليل، التبخس هو أن تبخس الناس أشياءهم، أن تعطيهها قيمة أقل من قيمتها الحقيقية فإذا جئتكَ ببضاعةٍ سعرها ألف وقلت لي: اشتريها منك بمئة فقد بخستني، قال تعالى:

يَسْمُ اللّٰهُ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
وَلَا يَبْخَسُ مِنْهُ شَيْئًا

(سورة البقرة: الآیة 282)

وفي آیة أخرى:

يَسْمُ اللّٰهُ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

(سورة هود: الآیة 85)

لا يجوز أن تبخس الناس أشياءهم، إن شئت فاشترى وإن شئت فلا تشتري، لكن أن تعطيه ثمنًا قليلاً لبضاعةٍ قيمتها كبيرة فهذا بخسٌ لا يجوز، وحتى من الأمور المعنوية التي ينبغي ألا تبخس الناس أشياءهم؛ إن رأيت عالماً في مجال معين فلا تبخسه علمه فنقول له: يبدو أن معلوماتك قليلة! (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) لا مالاً ولا مكانةً ولا خبرةً لا ينبغي أن يبخس الإنسان أخاه شيئاً مما أتاه الله تعالى، أي أن يعطيه أقل من قيمته، قد تقول لي: هذه البضاعة بمئة، أقول لك: اشتريها بتسعين، أما أقول لك: بخمسين! فقد بخستك حقك، فالمفاوضة تكون ضمن نطاق محدود حتى في البيع.

{ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَجِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ سَمَحًا إِذَا اشْتَرَى سَمَحًا إِذَا اقْتَصَى {
(رواه البخاري)

عنده سماحة في البيع وفي الشراء وفي القضاء وفي الاقتضاء، عندما يطلب حقه فهو سمح، وعندما يُطالب بحق فهو سمح، وعندما يبيع فهو سمح، وعندما يشتري فهو سمح، أي سهل، أما الآية هنا (وَسَرُّوهُ يَتَمَنَّ حَسَنًا) أي باعوه بأقل من قيمته بكثير، يوسف عليه من علامات الحسن الظاهر ما عليه، وفيه من علامات الحسن التي لا يراها إلا أهل البصيرة ما فيه، من علامات النجابة والذكاء والخلق العالي، فإن يُدفع فيه ثمن فمهما دُفع فهو بخس، لكن حتى في عرفهم يوم دفع هذا الثمن بسلام كان ثمنًا بخسًا لسلام يباع ويُشترى، ويبدو أنهم قِيلوا بذلك لأن السارق دائمًا يبيع بأي ثمن.

الثمن كان دراهم معدودة

فهم لما أخذوه وأَسْرُوهُ بِضَاعَةً هم يبيعون حرًا ويبيعون غلامًا قد أخذوه من أهله وكان بإمكانهم أن يصلوا إليه وربما يوسف أخبرهم بل يغلب على ظننا أن يوسف لما خرج من الجب معهم قال: أنا فلان أرجعوني إلى أهلي، وطلب ذلك لأنه غلام وإع يستطيع أن يفعل ذلك، لكن لما (أَسْرُوهُ بِضَاعَةً) وأخفوه عن العيون من أجل أن يبيعوه فأعطوا به ثمنًا بخسًا فباعوه ليتخلصوا منه وينجوا من فعلتهم، (وَسَرُّوهُ يَتَمَنَّ حَسَنًا دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً) الدرهم من المُعَرَّب، كلمة ليس أصلها عربيًا، فالدرهم جمع درهم وهو ثمن من الأثمان يباع ويشتري به.



في الدراهم المعدودة إشارة إلى القلة

(مَعْدُودَةٌ) أي تُعَدُّ، ودائمًا نقول للشيء الغالي ثمنه: لا يُعَدُّ ولا يُحصى، فنشير إلى عظم الشيء بقولنا: لا يُعَدُّ، ونشير إلى صالته بقولنا: يُعَدُّ على أصابع اليد، وقد نقول: على أصابع اليد الواحدة لنشير إلى القلة، فالدراهم معدودة، وقيل: إهم كانوا في ذلك الزمن يبيعون الأشياء الغالية بالوزن والرخيصة بالعد، فإذا بلغ أكثر من أوقية فيبيعونه بالوزن، كم تحتاج وزنه من الدراهم أو من الدنانير؟ بزنيون وزنًا، فإذا كان شيئًا بخسًا فإنهم يبيعونه بالدراهم المعدودة التي تُعَدُّ، على كل الثمن كان بخسًا جدًا والدراهم كانت معدودة.

تعريف الزهد



الزهد من أعمال القلوب

(وَكَاثِرًا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) لم يكونوا عارفين بحقه ولا بقيمته ولا بمن بين أيديهم فزهدوا عنه ولم يرغبوا فيه، وأصل الزهد أن ترغب عن الشيء ويقال: زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَي رَغِبَ عَنْهَا، ولكن الزهد ليس عملًا من أعمال الجوارح وإنما الزهد من أعمال القلوب، فليس الزهد في ثياب بالية يلبسها الإنسان، ولا في شعر أشعث يتركه من غير أن يمشطه، ولا في مسكن قبيحٍ وخيمٍ يسكنها، ليس هذا هو الزهد، وإنما الزهد عملٌ من أعمال القلوب وهو ألا تأسرك الدنيا بما فيها فترغب عنها بقلبك وإن كنت تملكها بيدك، هذا هو الزهد، أن ترغب عن الدنيا بقلبك لا أن ترغب عنها بيدك، ولَمَّا فهم بعض المسلمين أن الزهد يعني ترك الدنيا تركوا الدنيا فأخذوا غيرهم واستبدوا بهم وتحكموا بهم عندما ملكوا الدنيا، لذلك هذا المعنى من أين استقيناه؟ من قوله صلى الله عليه وسلم لَمَّا سُئِلَ:

{ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ تَوْبَهُ حَسَنًا وَتَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطْرٌ الْحَقُّ، وَعَمَطُ النَّاسِ }

(صحيح مسلم)

فالمتكبر هو الشخص الذي إن جاءه الحق ردّه وإن ذكر أمامه إنسانٌ غمطه حقه وبخسه حقه ولم يعطه حقه فهذا هو المتكبر ولو لبس أحشن الثياب، وأما المتواضع فلو لبس أجمل الثياب فإنه لا يردُّ الحق ولا يبخس الناس قيمتهم ولا أشياءهم، فالكبر في القلب والرهد في القلب، (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) زهدوا به فباعوه بثمنٍ بخسٍ من الدراهم المعدودة.

المشتري هو عزيز مصر

هنا السياق القرآني: انتقل الآن يوسف عليه السلام، انتقل من مكانٍ إلى مكانٍ، أين هذا المكان؟ مصر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

(سورة يوسف: الآية 21)



المشتري هو رجلٌ من مصر

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ) المِصْرُ في الأصل تطلق على المدينة بشكل عام، أي مدينة تسمى مصرًا، يسكن بها الإنسان ويستقر بها تسمى مصرًا، ويطلق على بلده بعينه يسمى مصر، والمقصود هنا هو مصر هي البلد التي كانت تسمى مصر الموجودة إلى يومنا هذا على اختلاف الحدود والله أعلم بحدودها لكن هي مصر، (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ) إذا المشتري هو رجلٌ من مصر، هنا السياق القرآني لا يذكر من هذا الرجل، لكن بعد حين يخبرنا بأن هذا المشتري وإن لم يكن قد باشر الشراء بنفسه لكن دافع المال يسمى مشتريًا وإن لم يكن قد باشر الشراء بنفسه فأنت قد تشتري شيئًا ولست المشتري تشتريه لغيرك فأنت وكيلٌ عنه، فالنتيجة أن الذي اشتراه هو عزيز مصر كما يسميه القرآن عزيز مصر، من عزيز مصر؟ أرجح الأقوال: أنه كان رئيس الشرطة، يعني هو قائد القوات التي تحمي مصر، وقيل: بل هو ما يسمى اليوم رئيس الوزراء، يعني الحكومة التي تُدير البلد وعلى الحاليتين فالمعنى واحد، سماه القرآن عزيز مصر لما له من عِزَّةٍ عند أهل مصر، هو ليس الملك وإنما هو العزيز الذي بيده حماية مصر سواءً بالوزارة أو بالشرطة.

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ) والمرأة هنا هي الزوجة، ويطلق في العربية وفي القرآن: يستخدم كلمة امْرَأَتِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَصَحَّكَ فَبَشَّرَهَا

(سورة هود: الآية 71)

امْرَأَتُهُ هنا هي زوجته، (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ) وقيل إِنَّ امْرَأَتَهُ هنا هي التي تذكرها كتب التاريخ على أنها زليخة والله أعلم باسمها.

المقصود بالمتوى



المُنَوَّى هو مكان الإقامة والاستقرار

(أكرمى مَنَوَاهُ) المُنَوَّى هو مكان الإقامة والمبيت والاستقرار، والثوي الذي ينوي به الإنسان فيسمى مَنَوَّى، اسم مكان مثل: معمل، مَنَوَّى على وزن مَفْعَل، وقد وَهَمَ بعضهم في بعض المنشورات التي قرأتها حديثاً في وسائل التواصل الاجتماعي: أنهم ينهون أن المُنَوَّى لشيء والمأوى لشيءٍ آخر، قرأت منشوراً بنحو ذلك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالنَّارُ مَنَوَّى لَهُمْ

(سورة محمد: الآية 12)

فالمُنَوَّى للنار، أما الجنة فهي مأوى وليست مَنَوَّى وهذا ليس صحيحاً، فإلمنَوَّى والمأوى كلاهما يطلق علي الجنة وعلى النار وعلى المكان الحسن وعلى المكان القبيح، المأوى والمُنَوَّى كلاهما يطلق على الشئيين وقد جاء ذلك في كتاب الله فهنا (أكرمى مَنَوَاهُ) وجاء (وَالنَّارُ مَنَوَّى لَهُمْ) وجاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَيُنْسِنُ الْمُصِيرُ

(سورة آل عمران: الآية 162)

فالمأوى يأتي للجنة والنار، والمُنَوَّى يأتي للجنة والنار، و(أكرمى مَنَوَاهُ) أبلغ من أن أكرمه، لغة أبلغ من أن تقول: أكرم فلاناً، أن تقول: أكرم منواه، فإذا علمت أن والدك قادم من سفر وقد غاب عنك فترة من الزمن وأخبرت بقدمه بعد يومين فإنك تُهَيِّئُ مَنَوَاهُ قبل قدومه، فتُهَيِّئُ له السرير وتضع له الفراش الوثير وفوقه الوسائد الناعمة النظيفة وتنظف الغرفة فأنت الآن تكرم منواه، فما بالك بإكرامه عندما يصل إذا كنت قد أكرمت منواه فكيف سيكون إكرامك إياه؟! فهذا من المجاز، في الأصل المقصود أن يكرم هو لكن يقال: أكرم منواه أي أكرم مكان إقامته فهذا أبلغ في إكرامه.

(أكرمى مَنَوَاهُ) يبدو أن عزيز مصر لمج في وجه يوسف الجمال، الجمال واضح، كما ورد في الحديث:

{ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أُعْطِيَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَطْرَ الْحُسْنِ }

(رواه مُسْلِم)

ولمج من حديثه معه كما يبدو مخايل النجابة والذكاء والفطنة، يعني هما أمران معاً الظاهر والباطن، فقال: (أكرمى مَنَوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا) يعني رجا أن يكون له منفعة من هذا الغلام إذا كبر، (أَوْ تَنْجِدَهُ وَلَدًا) ويبدو من السياق ومن بعض الروايات التاريخية أن عزيز مصر لم يكن له أولاد، كان لا ينجب ليس له أولاد، فقال: (أَوْ تَنْجِدَهُ وَلَدًا)، هو الآن ينع على أنه عيد فإن (تَنْجِدَهُ وَلَدًا) ولُدُّ لعزيز مصر ليس شيئاً سهلاً لذلك قال: (أَوْ تَنْجِدَهُ وَلَدًا) يعني إذا رأينا منه ما يدفعنا لذلك إن كبر.



الانتقال من البئر إلى القصر

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) الآن بدأ التمكين ليوسف من هذه اللحظة، يوسف كان في البئر الآن صار في القصر، انتقل من البئر إلى قصر عزيز مصر بدأ التمكين الذي وُعدَّ به يوسف (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) ولم يقل: في مصر، بل قال: (في الأرض) إشارة إلى أن دعوة يوسف ونبوة يوسف ستكون عامةً شاملةً فقال: (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) مَكَّنَ لَهُ: جعله ذا مكانة، ويقال: وضعت لجنة للتمكين للغة العربية؛ أي لتجعل اللغة العربية ذات مكانة بين نفوس أصحابها، ولا يقال: مَكَّنَهُ وإن كان صحيحاً بل الأصح أن يقال: مَكَّنَ لَهُ، فهنا (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ) أي جعلنا له مكانة ثابتة في الأرض، بدأ التمكين من هذه اللحظة وهو غلام صغير.

التأويل هو المآل

(وَلِتَعْلَمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) التأويل هو المآل أن تعلم مآل الأمر، فلما (رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ) بنهاية القصة قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا

(سورة يوسف: الآية 100)

هي كانت رؤيا ربما قبل أربعين سنة لكن أُوتيت لما وقعت، يعني انضح مآلها، انضحت نهايتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ

(سورة آل عمران: الآية 7)

في الآيات المتشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله، فهنا قال: (وَلِتَعْلَمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) المقصود هنا تأويل الأحلام والرؤى التي أبدع فيها يوسف عليه السلام بتعليم الله تعالى إياه، (وَلِتَعْلَمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) يعني أنت ترى رؤيا؛ عندما يُعبَّرُها يوسف عليه السلام يقول لك مآلها، كيف ستؤول هذه الرؤيا، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَنَا أَخَذُكُمْ فَيْسُفِي رَبِّهِ خَمْرًا □ وَأَنَا الْأَخْرَجُ فَيَضَلُّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ

(سورة يوسف: الآية 41)

لما قالوا له: (بَيِّنَّا يَا تَأْوِيلَهُ) يعني أعطنا النهاية ما الذي سيحصل؟ فقال: سيحصل كذا وكذا، فأعطاهم المآل هذا هو التأويل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِبُّوا يَعْلَمُهُ وَلَقَدْ آتَيْنَاهُمْ تَأْوِيلَهُ

(سورة يونس: الآية 39)

ربنا عز وجل في القرآن قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا

(سورة البقرة: الآية 276)



يمحق الله الربا

فإذا رأيت مراكباً وأمواله تنمو ومن عشر سنوات يزيد في الربا والأموال تزيد إذاً لَمَّا بَأْتِ التَّأْوِيلَ، لَمَّا بَأْتِ تَأْوِيلَ هَذِهِ الْآيَةِ بِالنِّسْبَةِ لِفُلَانٍ، قَدْ تَرَى وَقَدْ لَا تَرَى أَنْتَ، لَكِنَّ اللَّهَ يَمْحَقُ الرِّبَا، رُبَّمَا يَأْتِي تَأْوِيلُهُ بَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً فَيَمْحَقُ اللَّهُ لَهُ مَالَهُ كُلَّهُ وَرُبَّمَا تَرَى بَعَيْنِكَ أَنَّهُ يَزِيدُ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ قَدْ نَزَعَتْ مِنْهُ الْبِرْكَةَ فَيَرَابِي وَبِرِيحِ الْأَفْئَاتِ ثُمَّ يَضَعُ أَعْصَافَهَا لِعِلَاجِ ابْنِهِ، أَوْ لِحَادِثٍ فِي سِيَارَتِهِ، أَوْ لِحَرِيقٍ فِي بَيْتِهِ، فَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ التَّأْوِيلَ، لَكِنَّ اللَّهَ يَمْحَقُ الرِّبَا هَذَا قَانُونٌ، قَدْ تَرَى بِأَمْعِنِكَ مَحَقَ الرِّبَا عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ وَقَدْ لَا تَرَاهُ (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِبُّوا يَعْلَمُهُ وَلَقَدْ آتَيْنَاهُمْ تَأْوِيلَهُ).

المؤمن لا يعلم الغيب لكنه يعلم المآلات

لما قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً

(سورة النحل: الآية 97)

فإذا رأيت المؤمن يعيش في الحياة الطيبة وقد عمل الصالحات فهذا تأويل الآية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



التأويل هو أن تعرف المآل

فلما ترى المعرض عن ذكر الله في ضيق وعدم سكينه وتشاؤم وسوداوية وقلق واكتئاب فهذا تأويل قوله تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) فالتأويل هو أن تعرف المآل، والمؤمن ينظر بنور الله فيرى مآلات الأمور قبل أن تقع، فيصل إلى الشيء قبل أن يصل إليه، يصل إليه بعقله قبل أن يصل إليه بجسده، المؤمن يرى أن نهاية الحياة هي الموت، هذا المآل، تأويل، يرى مآل الحياة هو الموت فيصل بعقله إلى أنه سيموت فينضب بشرع الله، أما غير المؤمن فيفاجأ بالموت مفاجأة فلا يصل إليه بعقله قبل أن يصل إليه بجسده، فعندما يصل إليه بجسده يكون قد فات الأوان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا

(سورة المؤمنون: الآية 99-100)

فالمؤمن لا يعلم الغيب لكنه يعلم المآل بإخبار الله تعالى له، المؤمن لا يعلم الغيب لكنه يعلم المآلات بإخبار الله تعالى له بما سيكون فهو يعلم التأويل، فيوسف عليه السلام قال: (وَلْيُعَلِّمَهُ مِنَ التَّوِيلِ الْأَحَادِيثَ) فهو يعلم المآلات، ومن المآلات التي يعلمها ومن معجزاته مآلات الأحلام، كلنا إذا فسر حلمًا مهما كان عارفاً بهذا فهو تفسيرٌ ظني، لا يوجد اليوم تفسير أحلام قطعي، تقول: لعله كذا، يعني من باب الظن، لكن يوسف عليه السلام لما كان يُؤول كانت تقع الرؤيا كما يؤولها تماماً لأنها معجزة له، (وَلْيُعَلِّمَهُ مِنَ التَّوِيلِ الْأَحَادِيثَ).

وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ

الآن العبارة المفصلة الأساسية في سورة يوسف كلها، أنا أقول هذا محور السورة، قال: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) فَلَهُ مَنْ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ، كَثْرَةٌ مِنْ تَطَنُّ أَنْ فَلَانًا أَوْ فَلَانًا أَوْ دَوْلَةً أَوْ دَوْلًا غَالِبُهُ عَلَىٰ أَمْرِهِ، يَطَنُّونَ ذَلِكَ، لماذا؟ لأن عندنا عالَمين: عالَم الغيب وعالَم الشهادة، عالَم الشهادة تراه بعينك فتظن أنه الحقيقة كلها، تظن ذلك، أما الغيب فلا تدركه بحواسك فيغيب عنك، هو غيبٌ غاب عنك فتظن أو تتوهم أنه لن يقع، بخلاف المؤمن الذي يؤمن بالغيب مثل إيمانه بالشهادة أو أعظم، (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ).



المؤمن يعلم أن الله غالب على أمره

فالتاس عندما ينظرون؛ ينظرون أن من يحكم العالم فلان أو فلان أو الدولة الفلانية أو المنطق الفلاني أو منطقي القوة أو إلى آخره لأنهم ينظرون بعين الشهادة، لكن عندما يتعمق الإنسان ويفهم على الله عز وجل يعلم أن يد الله وحدها تعمل بالخفاء وأن هؤلاء الذين يظن أنهم يتحكمون في العالم إنما هم أدوات بيد الله عز وجل يسيرهم كيف شاء ليحقق حكمته جل جلاله، فالمؤمن يعلم أن (اللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ) إلا أن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ هذه الحقيقة لأنهم متعلقون بعالم الشهادة الذي يوهمهم بأن هناك جهات أرضية تتحكم بهذا العالم أو تفعل فعلها، (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)، لك أن تتصور كيف تلقى النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم في مكة المكرمة هذه الآيات وهم يسامون سوء العذاب ثم يسمعون قوله تعالى: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) المؤمن الجديد يرى أن قريباً تفعل ما تفعل وأنها تكيد للمسلمين وبلاذ يعذب فيقول: أحدٌ، والنبي صلى الله عليه وسلم يمر بالأسر فلا يملك لهم إلا أن يقول: صَبْرًا أَلْ تَاسِرَ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ، ولا يستطيع أن يدفع عنهم هذا الضر الذي يصيبهم، والمسلمون يتخفون في دار الأرقم ويطاردون ثم يسمعون قوله تعالى: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ونحن اليوم في هذا العصر الشبيه جداً بالعصر المكي أيضاً ينبغي أن تنتزل هذه الآية في نفوسنا منزلاً بمعنى أن نؤمن إيماناً يقيناً بأن الأمر كله بيد الله وهذا هو التوحيد وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، الدين كله توحيد، الدين كله أن تعلم أن الله غالب على أمره وألا تتوهم أن هناك جهةً تسبق الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

(سورة العنكبوت: الآية 4)

كل شيء يتحرك ضمن إرادة الله



كل شيء في الحياة يجري بإرادة الله

لا أحد يسبق الله تعالى ولا أحد يستطيع ذلك أبداً، أ رأيت إلى سفينةٍ ضخمةٍ، باخرة تمخر عباب البحر وتتجه بكل قوتها من المشرق إلى المغرب وبمحركاتها العشرة التي تحركها بهذه القوة الهائلة من المشرق إلى المغرب فوقف واحدٌ من الناس على ظهرها ومشى بعكس مسيرها من المغرب إلى المشرق وقال: أنا أفعل ما يحلو لي ولن أنصاع لأمر هذه السفينة! إنه مضحك لأنه ما زال فوق السفينة وسيصل من المشرق إلى المغرب وهو فوق السفينة فقط يتحرك حركة عشوائية لكن السفينة كلها متجهة وفق إرادة ربان السفينة ولله المثل الأعلى نحن جميعاً في هذه الحياة نتحرك فوق ظهر سفينةٍ لكن الله تعالى هو الذي يحرك سفينة الحياة في الطريق الذي يريد وبالحالة التي يريد ونحن نظن أننا نتحرك لكننا في الحقيقة نتحرك ضمن إرادة الله وبد الله وحدها تعمل في الخفاء (وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

(سورة التوبة: الآية 32)

تخيل إنساناً بكل قوته وجهه بصقاً لقرص الشمس ليطفئها كم هو مضحكٌ وساذجٌ! قال تعالى: (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ) والله (يُنِيرُ نُورَهُ) فالله تعالى بيده الأمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ

(سورة الروم: الآية 4)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ

الأمر بيده وحده، لا أمر إلا أمره جلّ جلاله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ

(سورة الأنفال: الآية 17)



العقيدة توجّه الحركة

هذا هو التوحيد أنت تحرك يدك وتأخذ القوس وتضع السهم وترمي تقول: أنا رميت، أنت لم ترم أنت تحركت ضمن إرادة الله الذي رمى هو الله جلّ جلاله لكن أنت أخذت ثواب العمل أو إثم العمل، أنت كسبت واكتسبت لكن الفعل فعل الله، يظن البعض خطأ منهم أن هذه العقيدة تنشل الحركة، أبدأ هذه العقيدة توجّه الحركة، الذي ينشل الحركة هو عقيدة الجبر أن تعتقد أنك مجبر، نحن لا نقول إنك مجبر على أفعالك، بل نقول: إنك تتحرك باختيارك لكنك ضمن إرادة الله، هو ما أجبرك على هذه الحركة، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ

(سورة الكهف: الآية 29)

لكنك عندما تختار أحد الطريقين فأنت الآن تُسيّر ضمن إرادة الله، أنت لا تفعل شيئاً لا يريدك الله فهذه العقيدة بالعكس توجه الحركة لأنها تفهمك أنك جند في هذا الكون تتحرك مع الكون كله بإرادة الله تعالى، أما ما ينشل حركة الإنسان أن يقال له: أنت مجبر على كل أعمالك ولن تستطيع أن تفعل خيراً والله تعالى أراد بك شراً فستفعل الشر! هذه عقيدة الجبر التي تنشل حركة الإنسان أما العقيدة الصحيحة التي تقول: الفعل فعل الله والإنسان يكسب أو يكتسب فهذه عقيدة سليمة توجه حركة الإنسان في الطريق الصحيحة.

الحكمة والعلم

الآية الأخيرة في هذا اللقاء؛ قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(سورة يوسف: الآية 22)

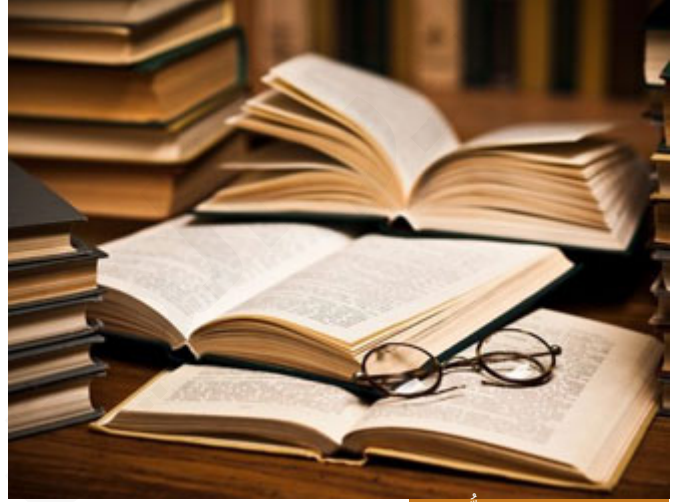
(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ) يوسف عليه السلام (بَلَغَ أَشُدَّهُ) أي قوته، الأُشدُّ هي القوة وأصبح قوياً قبل هذا في عمر بين الخامسة والثلاثين والأربعين لأنه في هذا العمر الإنسان يكون في قمة نشاطه وازدياده ثم يبدأ بعدها بالتناقص فيبلغ أشده عندما تكتمل رجولته في جسمه ويكتمل عقله ومحاكمته للأمور (بَلَغَ أَشُدَّهُ).

يقول عن موسى عليه السلام:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى

(سورة القصص: الآية 14)

استوى عقلياً وبلغ أشده جسمياً.



العلم من غير حكمة يصل صاحبه

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) الحكم هو الحكمة، وقدم الحكمة على العلم لأن العلم من غير حكمة يصل صاحبه، فكم من عليم أصله علمه لأنه لم يمتلك الحكمة التي تجعله يضع الشيء المناسب بالقدر المناسب بالوقت المناسب في المكان المناسب فالحكيم بحسن صياغة حياته والله تعالى هو الذي يؤتي الحكمة (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) وقد يكون الحكم هنا بمعنى الحكم وهو الحكم بين الناس والفصل في الخصومات فيقال حكم بينهما أي فصل في الخصومة وأعطى لكل ذي حق حقه، فهذا حكم يحكم به الإنسان وكلاهما مستمد في المحصلة من جذر واحد، فالحكمة أن تتصرف بالشكل الصحيح في الوقت المناسب في الزمن المناسب، والحكم عندما تحكم بشكل صحيح فأنت صاحب حكمة، فالأمران متعلقان ببعضهما في محصلة الأمر (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) وكذلك تجزي المحسنين) وقوله تعالى: (وَكذلك تجزي المحسنين) يدل أولاً: على أن يوسف عليه السلام قد بدر من إحسانه في فتوته وشبابه ما بدر، لأن الله تعالى الآن يكافئه على إحسانه بأن أتاه الحكمة، فالحكمة عطاء من الله لكنه ليس عطاءً بلا سبب حاشاه تعالى أن يعطي عطاءً بلا سبب يعطي على شيء، فكان محسناً يوسف عليه السلام أحسن، أعطى من وقته من ماله من حياته من مكانته وهو في قصر العزيز، أحسن للناس في هذه المدة كانت حياته مبنية على الإحسان والإحسان هو العطاء والإنفاق فلما أحسن جازاه الله تعالى بالحكمة والعلم (وَكذلك تجزي المحسنين) دلالة على أن يوسف كان محسناً في فتوته وشبابه وقبل أن يبلغ أشده.

تعميم العطاء الإلهي ليشمل كل محسن



قانون جزاء المحسنين

والأمر الآخر: (وَكذلك تجزي المحسنين) انتقال من حالة خاصة ليوسف إلى قانون عام يشمل كل محسن، فلو قال تعالى: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) وكذلك فعلنا بيوسف مثلاً، لظن طأن أن هذه خاصة بيوسف لكن لما قال: (وَكذلك تجزي المحسنين) فعمم القانون أي كل محسن يحسن في تعامله مع الله وفي تعامله مع خلق الله فإن الله تعالى يجزيه بأن يمنحه الحكمة ويمنحه العلم ويؤتيه من فضله ما يشاء، هذا الجزء من الآية (وَكذلك تجزي المحسنين) قلب الآية كلها من حكم عام إلى قانون وهذا شبيه بقوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَدَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ

(سورة الأنبياء: الآية 87-88)

فلا تظن أن هذا الحكم خاصٌ بيونس عليه السلام وإنما هو لكل من يكون على خطى يونس عليه السلام ويلتجئ إلى الله عند الملمات فيجازه الله تعالى وبيحه إلى دعائه. والحمد لله رب العالمين.

نور الدين الاسلامي